

# الباب الخامس

الإدارة

obeikandi.com

بلغت النظم الإدارية في عهد السلطان برقوق درجة كبيرة من الإتقان والدقة، فكان عماد الحياة الإدارية في العاصمة مجموعة من كبار الموظفين يمثلون الإدارة المركزية، أما في الأقاليم فاعتمدت الحياة الإدارية على مجموعة من النواب والولاة يمثلون الإدارة المحلية، وبجانب هذا الجهاز الإداري الضخم وجدت مجموعة من الدواوين الكبيرة لإدارة مرافق الدولة العديدة، ومن ثم تمثل الجهاز الإداري العام في النظم الثلاثة التالية:

### أولاً: الإدارة المركزية:

تمثلت الإدارة المركزية في العاصمة في: نيابة السلطنة، والأتابكية، والوزارة، وولاية القاهرة.

#### ١- نيابة السلطنة:

النيابة أصلاً وظيفة ابتدعها الأيوبيون، وذلك لكثرة تغيب السلطان صلاح الدين الأيوبي عن مصر، ولرغبته في أن ينوب عنه بما أثناء اشتغاله بالحروب الخارجية أحد رجال الدولة، فكان الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح نائب أبيه صلاح الدين بمصر مدة اشتغاله بفتح البلاد الشامية<sup>(١)</sup>.

ويكاد يكون نائب السلطنة في مصر هو السلطان الثاني، لما يتمتع به من نفوذ كبير<sup>(٢)</sup>، فقد «كان يستخدم الجند، ويخرج الإقطاعات من غير مشاوراة السلطان، وهو المتصرف المطلق في كل أمر، فيراجع في الجيش والمال والبريد، وكل ذي وظيفة لا يتصرف إلا بأمره ولا يفصل أمراً معضلاً إلا بمراجعته، وهو الذي

(١) السيوطي: حسن المحاضرة - ج ٢ - ص ٢٢ .

Ven Berchem: Matériaux pour un corpus.

(٢)

Inscription um Arabicarum De L'Egypte. P. 212.

Wiet: Op. cit. p. 396.

يستخدم الجند، ويرتب الوظائف»<sup>(١)</sup> كما كان يلقب بالنائب الكافل<sup>(٢)</sup>، وكافل الممالك الإسلامية<sup>(٣)</sup>، لأنه كان يكتب من سائر نواب الممالك الشامية وغيرها في مثل الأمور التي يكتب فيها السلطان<sup>(٤)</sup>.

ويمكن أن نتبين مدى أهمية نائب السلطنة في مصر إذ ذاك من التقسيم الذي وضعه الخالدي لأرباب الوظائف بحضرة السلطان من الأمراء المقدمين، إذ يضع الخالدي نائب السلطنة على رأس كبار الموظفين بالعاصمة<sup>(٥)</sup>.  
على أنه إذا كانت نيابة السلطنة قد ضعفت في عهد الناصر محمد بن قلاوون ثم ألغيت مع الوزارة سنة ٧٢٧هـ<sup>(٦)</sup>.

فقد حرص السلطان برقوق عند اعتلائه عرش مصر سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م، أن يختار لهذه الوظيفة الأمير سؤدون الفخرى الذي كان يتمتع بثقة السلطان واحترامه<sup>(٧)</sup>، وخير دليل على ذلك أن السلطان برقوق بعد أن أقره في وظيفة النيابة صار «يقبل قوله ولا يرد أمره»<sup>(٨)</sup>، بل وصل الأمر بالسلطان برقوق إلى أنه لم يتجاهر بشيء من المنكرات إلا بعد موت سؤدون النائب<sup>(٩)</sup>.

وكيفما كان الأمر فقد تمتع هذا النائب بسلطة واسعة، فكان يعين الأمراء وغيرهم في المناصب<sup>(١٠)</sup>، كما كان يتوب عن السلطان في استقبال كبار الشخصيات الوافدة على السلطنة في مصر من الخارج<sup>(١١)</sup>، كذلك كان يقوم

(١) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١٥.

Van Berchem Op. Cit. P. 212.

(٢)

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٦.

(٤) القلقشندى: نفس المصدر والجزء ص ١٧، المقرئى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٥) الخالدي: المقصد الرفيع ورقة ١٢٤.

(٦) المقرئى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٧) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ ٢ ورقة ١٨٠، ابن حجر: إنباء القمر جـ ١ ص ٥١٧.

(٨) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ١ ص ٤٣٤.

(٩) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١٥١.

(١٠) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثانى ص ٧٣٢.

(١١) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ١ ص ١٠٦.

بعرض رجال الجيش المملوكي ويعين منهم من يختار للسفر إلى النيابات الأخرى التي تهددها الأخطار الخارجية<sup>(١)</sup>.

ويكفي ما قرره المقرئى من أن النيابة في أيام الظاهر برقوق كانت تسير على القوانين المعهودة بها ولم يصبها الوهن أو الضعف<sup>(٢)</sup>.

ويعتبر الأمير سودون آخر من تولى نيابة السلطنة في عهد برقوق ولم يل أحد هذه الوظيفة بعده حتى جاء السلطان فرج بن برقوق فأقام في وظيفة النيابة الأمير تَمْرَاز، ولكنه لم يقم في دار النيابة بالقلعة على ما هو المعهود، كذلك لم يتعد نفوذه نفوذ وظيفة حاجب الحجاب، ولم يتول النيابة أحد من بعد تَمْرَاز<sup>(٣)</sup>، وهذا النائب غير نائب آخر عرف بنائب الغيبة وهو الذى يقوم بعمل السلطان فقط إذا غاب السلطان عن البلاد في حرب خارجية أو خرج للصيد ونحو ذلك<sup>(٤)</sup>، وتتركز وظيفته في إقرار الأمن وإخماد الثوار وخلص الحقوق وغير ذلك<sup>(٥)</sup>.

ومن أشهر نواب الغيبة في القاهرة في دولة السلطان برقوق الأمير كَمَشِبِغَا الحموى أتاك العساكر، وكان السلطان برقوق قد عينه نائب الغيبة بمصر سنة ٧٩٣هـ / ١٣٩٠م إلى أن يعود من الشام<sup>(٦)</sup>، وقد تمكن هذا النائب من إدارة الأمور بحزم وكفاءة عالية، ولا أدل على ذلك مما وصفه به ابن الصيرفى في قوله: «ومضت هذه السنة والقاهرة ومصر وأعمالهما قد دبرها ودبر أحوالها بالسياسة الأمير كمشبغا نائب الغيبة، وصار أحد في مدة حكمه ونيابته لا يقدر يتجاهر بشيء من المنكرات والمسكرات، ولا يحمل سلاحا ولا يقرب فاحشة ولا يأخذ رشوة ولا يظلم أحدا من الرعية، فحسنت سيرته وتضاعفت الأدعية له»<sup>(٧)</sup>.

(١) ابن الصيرفى: نفس المصدر والجزء ص ٣٢١.

(٢) المقرئى: المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٥.

(٣) المقرئى: المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢١٥.

(٤)

(٥) القلقشندى: صبح الأعشى ج ٤ ص ١٧ - ١٨.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ القسم الثاني ص ٤٤٦.

(٧) ابن الصيرفى: نزهة النفوس ج ١ ص ٣٣٨.

## ٢- الأتابك:

ويلى نائب السلطنة الأتابك، ويعتبر نظام الدولة وزير ملكشاه بن إلب أرسلان السلجوقي أول من لقب بهذا اللقب، حين فوض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة ٤٦٥هـ<sup>(١)</sup>، ثم جاء لقب الأتابك إلى مصر مع صلاح الدين الأيوبي<sup>(٢)</sup>، وأول من شغل وظيفة أتابك العساكر في العصر الأيوبي هو عز الدين أيك على عهد شجر الدر في سنة ٦٤٨هـ<sup>(٣)</sup>، وهكذا تحول هذا اللقب إلى لقب عسكري فأصبح يطلق على القائد العام للجيش المملوكي.

ومن ثم غدا الأتابك بحكم منصبه صاحب النفوذ الكبير. والكلمة العليا في الدولة، وقد اعتبره Van Berchem في المرتبة التي تلى مرتبة نائب السلطنة<sup>(٤)</sup>.

وكثيرا ما مهدت هذه الوظيفة لتولى السلطنة، كما فعل الأمير زين الدين كُتُبغا المنصوري عندما استبد بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الأولى، حتى انتهى الأمر بالأتابك إلى إعلان نفسه سلطانا سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م<sup>(٥)</sup>.

وربما أسندت إلى أتابك العساكر في بعض الأحيان الوصاية على سلطان قاصر، ومن ثم يصبح العوبة في يد أتابك الجيش يتحكم فيه كيفما شاء، كما فعل الأمير برقوق عندما عهد إليه بالوصاية على السلطان حاجي بن شعبان سنة

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص ١٨، الخالدي: المقصد الرفيع ورقة ١٣٤.

Ven Berchem: Op. Cit. P 290.

Ibid: P. 290.

(٢)

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور ج١ القسم الأول ص ٢٨٨.

Ibid: P. 290.

(٤)

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور ج١ القسم الأول ص ٣٨٦.

٧٨٣هـ / ١٣٨١م، وغدا برقوق هو المسيطر على شئون الدولة حتى انتهى به الأمر إلى اعتلاء السلطنة سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م<sup>(١)</sup>.

وكيفما كان الأمر فقد أصبح أتابك العساكر في الجيش المملوكي على عهد السلطان برقوق أهم أمير في السلطنة، وكانت مهامه أوسع كثيرا مما ينبئ به منصبه، ذلك أنه غدا في جميع الأغراض نائبا للسلطان، ويكفي أن السلطان برقوق جعل أتابكه كمشيغا الحموي نائبا عنه بمصر سنة ٧٩٣هـ / ١٣٩١م حين خرج إلى الشام لمحاربة الثائرين هناك<sup>(٢)</sup>.

وفي مجلس الوصاية الذي شكله برقوق سنة ٨٠١هـ / ١٤٠٠م للوصاية على أبنائه، كانت رئاسة هذا المجلس للأمير الكبير أَيْتْمَشُ الْجَحَاسِي أتابك العساكر<sup>(٣)</sup>.

### ٣- الوزارة والوزراء:

عرفت الدولة الإسلامية في فجر حياتها الوزارة بمعنى المعاونة، فكان لكل خليفة من يساعده في شئون الدولة، غير أن لقب الوزير لم يطلق على صاحب هذه الوظيفة إلا في أوائل الدولة العباسية، حيث أطلق هذا اللقب على أبي سلمة حفص بن سليمان الخلال وزير الخليفة السفاح، فكان يقال له: وزير آل محمد<sup>(٤)</sup>. وكانت الوزارة وقتئذ لها منزلتها حيث كان يوكل للوزير كل شئون الدولة<sup>(٥)</sup>.

هذا ولم تعرف الوزارة في مصر إلا في عهد الإخشيديين، فعد صاحبها على رأس السلطة الإدارية في الدولة المصرية<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن خلدون: العبر ج ٥ ص ٤٧١ - ٤٧٢، ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج ١ ص ٣٦.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ج ١ ص ٤٨٨.

(٣) المقرئ: السلوك ج ٣ القسم الثاني ص ٩٣٦ - ٩٣٧.

(٤) ابن طباطبا: الفخرى ص ١٣١.

(٥) ابن طباطبا: المصدر السابق ص ١٣٣، ابن خلدون: المقدمة ص ٢٣٨.

(٦) على إبراهيم: مصر في العصور الوسطى ص ٣٥٤.

ومن المعروف أن إنشاء وظيفة نائب السلطان في عهد الأيوبيين أضعف من أهمية الوزير، فتضاءل نفوذه عما كان عليه زمن العباسيين بالعراق أو الفاطميين بمصر<sup>(١)</sup>، كذلك لم يتمتع وزراء العصر المملوكي بالنفوذ المطلق لهذا السبب أيضاً. وكيفما كان الأمر فقد «تلاشت الوزارة في أيام الظاهر برقوق بما أحدثه من الديوان المفرد... وجعل مرجع هذا الديوان إلى الأستادار<sup>(٢)</sup>... وبذلك قوى جانب الأستادار وضعفت الوزارة»<sup>(٣)</sup>.

كما أن وظيفة مشير الدولة<sup>(٤)</sup> أضعفت كذلك من نفوذ الوزراء في عهد السلطان برقوق، فكان من سلطة مشير الدولة وقتئذ أنه لا يسمح للوزير أن يتصرف بالتصرف في شيء إلا بعد مراجعته<sup>(٥)</sup>.

كذلك حد من نفوذ الوزير بالإضافة إلى ما سبق بجحد مجموعة من الوظائف على رأس كل منها شخص يدعى الناظر، كناظر الخاص<sup>(٦)</sup>، وناظر الدولة الذي يشارك الوزير في الأمور العامة والشئون المالية، حتى إنه كان يقوم بتدبير أمور الدولة إذا غاب الوزير أو تعطلت الوزارة من وزير<sup>(٧)</sup>.

على الرغم من ذلك فإن الوزارة في عهد برقوق، بل والعهد التالية لم تفقد مكانتها نهائياً، بدليل ما ذكره المؤرخون المعاصرون لتلك الفترة عن منصب

(١) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٢٣، سعيد عاشور: العصر المالكي في مصر والشام ص ٣٥٥ - ٣٥٦.

(٢) الأستادار: هو الذى يتولى شئون مال السلطان قبضاً وصرفاً، ويتحدث في أمر بيوته، ويحكم في غلبانه، القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٠، جـ ٥ ص ٤٥٧.

(٣) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٢٣.

(٤) مشير الدولة: المشير هو الناصح الذى يؤخذ رأيه (حسن الباشا: الألقاب الإسلامية ص ٤٧١ وهو من ذوى السن من أكابر أمراء المؤمنين وهم أمراء المشورة، وكان جلوسهم في دار العدل على بعد خمسة عشر ذراعاً من بمنة السلطان ويسرته (القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٤٩).

(٥) أبو المحاسن: المنهل الصافي جـ ٣ ص ٦٨٥، النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٢٠٩.

(٦) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٢٣.

(٧) المقرئى: نفس المصدر والجزء ص ٢٢٤.

الوزارة، حيث يذكر ابن شاهين أن «من انتصب لهذه الوظيفة لزمه النهوض بمهمات الدولة وأمور المملكة بأن يحمل أثقالها، ويزيح اختلالها، ويصلح أحوالها، ويحفظ رجالها، وينمي أموالها، ويستخدم الكفاة ويوليهم أعمالهم... فمن أخلص رفعه، ومن غدر عدله، ويعتني بجهات الأموال وحراسة أسبأها... وضبط حسابها والعدل في جبايتها»<sup>(١)</sup>.

ولذلك نجد أن السلطان برقوق حرص في كثير من الأحيان على اختيار وزراء لهم مكاتتهم، فقد رفع من شأن الوزارة حين اختار لها في سنة ٧٨٥هـ الوزير صاحب شمس الدين إبراهيم كاتب أرلان، وربما كان من أهم أسباب ترشيحه للوزارة أنه مارس الخدمة في دواوين الأمراء، كما ولى نظر ديوان برقوق قبل أن يتسلطن، بحيث أصبحت له دُرْبَةٌ كافية في إدارة القضايا المالية<sup>(٢)</sup>.

وتشير المصادر المعاصرة لهذه الفترة أن السلطان برقوق، فوض الوزارة إلى إبراهيم هذا في وقت اضطرت فيه الأمور المالية للدولة وقل ما يتوصل للوزارة من الغلال وما يجبي من المال<sup>(٣)</sup>، حيث استأجر الأمراء النواحي بأجرة قليلة عجلوها<sup>(٤)</sup>، ولذلك كانت المهام الموكولة إليه عسيرة وشاقة، إذ كان عليه أن يضبط الأمور المالية للدولة وأن يكف أيدي الأمراء عن اتخاذهم النواحي واستغلالهم للبلاد على هذه الصورة، كما كان عليه أن يعيد مطابخ السكر على ما كانت عليه، ولكي يتم ذلك ويتمكن من مباشرة مهام منصبه «سأل السلطان في أن لا يوجر شيء من بلاد السلطان لأحد وأن تنفذ كلمته وأن لا يحمي أحد عليه فرسم له بذلك<sup>(٥)</sup>، ووضع السلطان في مستوى المسؤولية ومنحه سلطة مطلقة حيث انفرد بمباشرة الأمور بنفسه بعيدا عن مشير الدولة الذي كان من مهامه

(١) ابن شاهين الظاهري: زبدة كشف الممالك ص ٩٣ - ٩٥.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر ج ١ ص ٣٣٨.

(٣) ابن حجر: نفس المصدر والجزء والصفحة، ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج ١ ص ١٦٠.

(٤) المقرئزي: السلوك ج ٣ القسم الثاني ص ٥٦٩.

(٥) ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج ١ ص ١٦٠.

وقمئذ ألا ينفرد الوزير بالتصرف في شيء إلا بعد مراجعته، وقد أشار إلى ذلك ابن الصيرفي بقوله: «وكان الأمير جركس الخليلي له التحدث في الدولة فرفع يده من التحدث فيها»<sup>(١)</sup> وترتب على ذلك اتساع نفوذ الوزير فعظمت مكانته وهابه كبار الأمراء<sup>(٢)</sup>، وقد أجمعت المصادر المعاصرة له أن هذا الوزير تمكن ببراعته في القضايا المالية من أن يملأ بيت المال بالأموال وأن يعطى أرباب الوظائف راتبهم من غير نقص، ومات والحاصل في بيت المال مليون درهم من الفضة، ومن الغلال الذي ملأ به الأمراء السلطانية ثلاثمائة وستون ألف أردب، ومن الأغنام ستة وثلاثون ألف رأس، ومائة ألف طائر من الأوز والدجاج، ومن الزيت ألفا قنطار، ومن السكر كذلك<sup>(٣)</sup>.

ولذا وصف المؤرخون وزارته بأن حالها صار على القاعدة القديمة والقوانين المحررة وأن السلطان كان مطيعا له في كل ما يراه، ولذلك صارت يده فوق أيدي أهل الدولة وكبار الأمراء بها، وهابه الخاص والعام<sup>(٤)</sup>.

ولم يحاول هذا الوزير أن يستغل منصبه لجمع المال لحسابه الخاص، بل كان يأخذ ما يكفي لمعيشيته<sup>(٥)</sup>.

وفي السلطنة الثانية لبرقوق سنة ٧٩٢هـ حدث تطور في وظيفة الوزارة، حين تولى الوزارة الأمير الوزير محمد بن لأجين المعروف بابن الحسام، حيث استخدم جميع الوزراء المنفصلين قبل ولايته في إدارة شؤون الوزارة، فأسند نظر الدولة للوزير السابق شمس الدين المَقْسِي، كذلك أسند نظر البيوت واستيفاء الدولة للوزير السابق سعد الدين بن البقري، كما قرر موفق الدين أبا الفرج

(١) ابن الصيرفي: نفس المصدر والجزء ص ١٦١.

(٢) المقرئزي: السلوك ج ٣ القسم الثاني ص ٤٨٧.

(٣) المقرئزي: نفس المصدر والجزء ص ٥٦٩، ابن حجر: إنباء الغمر ج ١ ص ٣٣٨، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ١١ ص ٣١٢، ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج ١ ص ١٦١.

(٤) أبو المحاسن: المنهل الصافي (مطبوع) ج ١ ص ٥٧، ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج ١ ص ١٦١.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر ج ١ ص ٣٣٨.

الوزير السابق في استيفاء الصحبة<sup>(١)</sup>، وصار هؤلاء الوزراء يباشرون مهام وظيفتهم تحت إشراف الأمير الوزير ابن الحسام<sup>(٢)</sup>، الذي صار يلقب بوزير الوزراء<sup>(٣)</sup>، نظراً لرئاسته للوزراء الذين شغلوا هذا المنصب من قبل، وقد علق أحد المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة على هذا المنصب بهذه الصورة بقوله: «ولم يقع لغيره من الوزراء مثل هذا»<sup>(٤)</sup> كما علق المقرئى على ذلك بقوله: «وركبوا — أى الوزراء — فى خدمته وصار ذلك دأبهم دائماً ولم يسمع بمثل ذلك»<sup>(٥)</sup> أما بالنسبة لسلطة وزير الوزراء فله التصرف المطلق فى أمور وزارته، كما له حق الولاية والعزل للوزراء موظفى الدولة معاونين له، ويفرد وحده بهذه السلطة دون الرجوع لمشير الدولة فى أى أمر من الأمور<sup>(٦)</sup>، كما رسم له السلطان برقوق «أن البلاد المؤجرة للدولة فى أيدي الأمراء تعاد إليه كما كانت فى أيام الوزير شمس الدين إبراهيم كاتب أرلان»<sup>(٧)</sup>.

ومن تولى منصب الوزارة على هذه الصورة الأمير الوزير محمد بن رجب بن كلبك وذلك فى ربيع الآخر سنة ٧٩٦هـ «فخلع السلطان على جماعة من الوزراء البطالين<sup>(٨)</sup> بوظائف تحت يده تعظيماً له وصار الجميع فى خدمته»<sup>(٩)</sup> فتولى نظر الدولة الوزير السابق سعد الدين نصر الله بن البقرى، كما استقر فى

(١) مستوفى الصحبة: وهو يشارك الوزير ويعاونه فى الأمور العامة مثل كتابة المراسيم وتسجيلها، سعيد عاشور: العصر المماليكى ص ٤٤٨.

(٢) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ١ ص ٣١٧، ٣١٨.

(٣) ابن حبيب: درة الأسلاك فى دولة الأتراك جـ ٣ ورقة ١٤٦.

(٤) ابن الصيرفى: نفس المصدر والجزء ص ٣١٨.

(٥) المقرئى: السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٤٨٦.

(٦) ابن حبيب: درة الأسلاك جـ ٣ ورقة ١٤٦.

(٧) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ١ ص ٣١٧.

(٨) البطالون: هم العاطلون من أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها، نتيجة غضب السلطان أو كبر

السن، أو اضطراراً إلى الاعتكاف والاختفاء، أو مجرد حب الانزواء والابتعاد (زيادة: السلوك

جـ ١ ص ٧٣ حاشية ٤).

(٩) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١٥٢.

نظر البيوت الوزير السابق كرم الدين بن العنّام، وأشرف على استيفاء الدولة الوزير علم الدين سنّ إبّرة، وأصبح هؤلاء الوزراء يباشرون أعمالهم برئاسة الأمير ناصر الدين ولذا لقب هذا الأمير أيضاً بوزير الوزراء<sup>(١)</sup>، وكان قد مارس قبل توليته الوزراء وظيفة شاد الدواوين<sup>(٢)</sup> فاكسب مرانا كافيا في إدارة الشؤون المالية<sup>(٣)</sup>.

ومن ذلك نرى أن السلطان برقوق اتخذ وزراءه من أرباب الأقالام الذين يدعون وزراء الصحبة، كما اتخذهم أيضاً من أرباب السيوف وهم الأمراء<sup>(٤)</sup>. وكان الوزير يعين من قبل السلطان مباشرة، كما كان يصدر بتعيينه تقليد سلطان<sup>(٥)</sup>.

وفي عهد السلطان فرج ضعفت الوزارة عن عهدها السابق وبلغت الغاية من الضعف حين منيت البلاد سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م بقصور فيضان النيل مما أدى إلى الجذب العظيم في موارد الدولة كلها، وانعكس أثر ذلك على نظم الحكم في الدولة، ومن الأمور المقررة أن نظم الحكم كالكائن الحى يتأثر بالعوامل التاريخية والحوادث المحيطة به، فينمو أو ينقص تبعاً لها، وقد حدث ذلك لرتبة الوزارة ففسد حالها واضطربت أمورها، فكان الوزراء يتبدلون على منصب الوزارة بسرعة مذهلة، فبعضهم قد يمكث في الوزارة سنة أو أكثر، ولكن الغالبية منهم في هذه الفترة قد تمكث شهوراً أو أياماً، وقد يعود إلى الوزارة من عزل منها ليتولاها مرة ثانية وثالثة، ولذا رأينا المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة يسوقون تواريخ تعيين الوزراء وليس بين تعيين وزير وآخر فترة زمنية طويلة، يضاف إلى ذلك أن الكثرة من وزراء هذه الفترة فروا من مناصبهم هاربين حيث عجزوا عن الاستمرار في

(١) أبو المحاسن: نفس المصدر والجزء ص ١٥٢ - ١٥٣.

(٢) شاد الدواوين: أى الذى يفتش على الدواوين ويراجع حساباتها، سعيد عاشور: العصر الممالكي ص ٤٢٦ - ٤٢٧.

(٣) أبو المحاسن: النهل الصافي ج ٤ ص ٦٨١.

(٤) الخالدي: المقصد الرفيع ورقة ١٢٦.

مناصبهم نتيجة لسوء الحالة الاقتصادية، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره مؤرخ كابن الصيرفي حيث يقول: «وفي يوم السبت ١٥ محرم سنة ٨٠٦ غيب الوزير علم الدين أبو كم وهرب من العجز وقلة الحاصل»<sup>(١)</sup> كذلك هرب الوزير تاج الدين بن البقرى بعده بشهرين تقريبا، لأنه عجز عن مواجهة النفقات السلطانية<sup>(٢)</sup>، ثم عين بدلا منه الوزير رزق الله بن نقولا في ٢٠ ربيع الآخر وهرب في ١٠ جمادى الآخرة حيث لم يتمكن أيضا من مواجهة المصروفات الموكولة إليه<sup>(٣)</sup>.

وقد يعاد إلى الوزارة من هرب من الوزراء ليتولى الوزارة من جديد، ولكنه سرعان ما يهرب بعد أيام قلائل، فقد أعيد الوزير علم الدين أبو كم إلى الوزارة ولكنه هرب بعد ثمانية أيام<sup>(٤)</sup>.

ولم يرتفع شأن الوزارة طوال فترة السلطان فرج بن برقوق إلا إذا أضيفت إلى الأستاذار، وفي ذلك يقول المقرئى: «وما رأينا الوزارة من بعد انحطاط رتبها يرتفع قدر متوليها إلا إذا أضيفت إلى الأستاذارية كما وقع للأمير جمال الدين يوسف الأستاذار... وأما من ولى الوزارة بمفردها... فإنما هو كاتب يتردد ليلا ونهاراً إلى باب الأستاذار ويتصرف بأمره ونهيه»<sup>(٥)</sup>.

#### اختيار الوزراء:

وكان اختيار الوزراء يتم غالبا من بين القبط، لما عرف عنهم من البراعة في إدارة الشؤون المالية: وإن كان قد اشترط عليهم لتولى الوزارة اعتناق الإسلام ولذا اقترن الاسم القبطى للوزير باسم إسلامى مثل الوزير صاحب سعد الدين نصر الله بن البقرى القبطى الأسلمى<sup>(٦)</sup>، أو الوزير صاحب تاج الدين المعروف بابن

(١) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ٢ ص ١٧٨.

(٢) ابن الصيرفي: نفس المصدر والجزء ص ١٨٢.

(٣) ابن الصيرفي: نفس المصدر والجزء ص ١٨٤.

(٤) السيوطى: حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٢٧.

(٥) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٢٣.

(٦) المقرئى: السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٨٨٥.

المهيمم القبطى المصرى<sup>(١)</sup>، وكذلك الوزير صاحب موفق الدين الأسلمى القبطى المصرى<sup>(٢)</sup>، أو الوزير صاحب علم الدين يحيى المعروف بأبى كم الأسلمى القبطى المصرى<sup>(٣)</sup>.

وكان طبيعياً أن توصف الوزارة في هذه الفترة بوزارة الأقباط<sup>(٤)</sup>. كذلك روعى عند اختيار الوزراء من رجال القلم أن يكونوا قد مارسوا إدارة الشؤون المالية بالدواوين الحكومية، وتدرجوا في وظائفها، فالوزير صاحب علم بالدين ابن زنبور القبطى الذى ولى الوزارة للسلطان الناصر حسن سنة ٧٥١هـ كان قد تنقل في الخدم الديوانية قبل أن يلى الرئاسة فكان يلى قبلها استيفاء الوجه القبلى ونظر الخاص ونظر الجيش<sup>(٥)</sup> (الدرر ٢ / ٣٤٥ نجوم ١٠ / ٢٩٩ خطط ٢ / ٦٠) والوزير صاحب بدر الدين الطوخى «تنقل في الخدم الديوانية وباشر في عدة جهات»<sup>(٦)</sup> قبل أن يتولى وظيفة الوزارة، وكذلك الوزير صاحب شمس الدين المعروف بالمقسنى القبطى» كان من أعيان الكتاب وولى عدة وظائف إلى أن تولى الوزارة»<sup>(٧)</sup>.

#### دار الوزارة:

كان يعقد مجلس الوزير بقاعة صاحب بالقلعة ليكون على مقربة من السلطان ينفذ أوامره أو يستشيره فيها، ويكون أيضاً بجانب الدواوين التابعة للوزارة والتي يشرف عليها الوزير<sup>(٨)</sup>، ويعقد بهذه القاعة مجلس الوزير سواء كان الوزير من أرباب القلم ممن يطلق عليه اسم صاحب<sup>(٩)</sup>، أو كان الوزير من أرباب السيوف<sup>(١٠)</sup>.

(١) أبو المحاسن: المنهل الصافي جـ ٣ ص ٦٢٨.

(٢) أبو المحاسن: المنهل الصافي جـ ٥ ص ٦٧٨.

(٣) أبو المحاسن: نفس المصدر والجزء ص ٦٨١.

(٤) ابن خلدون: المقدمة ص ٢٤٣.

(٥) المقرئى: الخطط ٢ / ٦٠، ابن حجر الدرر الكامنة ٢ / ٣٤٥، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ٢٩٩ / ١٠.

(٦) أبو المحاسن: المنهل الصافي جـ ٥ ص ١٩٣.

(٧) أبو المحاسن: نفس المصدر والجزء ص ٦٧٨.

(٨) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ١ ص ٣١٧.

(٩) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١١ ص ٣١٢، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ١ ص ٦١.

(١٠) المقرئى: السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٧٢٧.

## طريقة عزل الوزارة:

لم تشر المصادر إلى طريقة عزل الوزير من منصبه، أيتم ذلك شفاهاً أم كتابة، واكتفى المؤرخون بالإشارة إلى العزل وكيفية معاملة الوزير المفصول عن الخدمة على اعتبار أن هذا هو المهم، وإذا عزل الوزير عن منصبه فالغالب أنه يسجن ويصادر، وفي كثير من الأحيان يعاقب الوزير ويموت تحت العقوبة، وقلما عزل وزير وأبقى على حياته وماله.

فمن هؤلاء الذين ماتوا نتيجة التعذيب الوزير الصاحب أبو الفرج عبد الوهاب موفق الدين الأسلمي القبطي المصري فقد كان أسوأ الوزراء سيرة فأوقع كثيراً من المظالم على الجماهير وسلك في جمع المال طرقاً غير مشروعة<sup>(١)</sup> كذلك مات الوزير الصاحب سعد الدين نصر الله بن البقرى القبطي الأسلمي، مات مخنوقاً بعد أن عوقب معاقبة شديدة<sup>(٢)</sup>.

ونجاة الوزير من العقوبة بعد عزله أمر يثير دهشة المؤرخين الذين عاصروا هذه الأحداث، فإذا مات أحد الوزراء المفصولين ميتة طبيعية عد ذلك من الأمور النادرة، ولذا نراهم يشيرون إلى مثل هذه الأمور بقولهم: «ومات الأمير الوزير ناصر الدين محمد بن رجب، سالماً من نكبات الزمان وتغير السلطان، وهذا نادر الوقوع»<sup>(٣)</sup>.

كما يشير المقرئى إلى وفاة هذا الوزير بقوله: «وهو ممن مات بغير نكبة من وزراء مصر»<sup>(٤)</sup>.

(١) أبو المحاسن: المنهل الصافي جـ ٥ ص ٦٧٨.

(٢) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثاني ص ٨٨٥.

(٣) ابن الصريف: نزهة النفوس جـ ١ ص ٤٣٥.

(٤) المقرئى: نفس المصدر والجزء ص ٨٦٥.

ومن هؤلاء الوزراء الذين عاشوا بعد عزلهم من الوزارة الوزير مبارك شاه بن عبد الله الظاهري فقد «عزله — السلطان برقوق — من غير نكبة ولزم داره حتى توفي»<sup>(١)</sup>.

#### ٤- والى القاهرة:

ويعهد إليه بالإشراف على العاصمة، ويساعده في أداء مهامه فريق من معاونين الذين يقومون بتبليغه «عن مجدعات ولايته من قتل أو حريق أو نحو ذلك، ثم تكون مطالعة جامعة بذلك تحمل إلى السلطان صبيحة كل يوم فيقف عليها»<sup>(٢)</sup>.

وكان هذا الموظف يتولى تنفيذ الأحكام، وإقامة الحدود، وتعقب المفسدين، ومثرى الفتن، ومدمني الخمر، ويتولى معاقبة كل منهم على حسب جرمته، فضلا عن مراقبة أبواب العاصمة، والطواف في أحياء التجارة والمال<sup>(٣)</sup>.

وما رواه ابن الصيرفي عن أعمال الأمير الحسين بن الكوراني والى القاهرة في عهد السلطان برقوق نتبين مدى ما تمتع به ذلك الموظف من شدة وحزم في مطاردته للمجرمين، ذلك أن نحو من ستين رجلا من اللصوص تدلوا من سور القاهرة في أواخر صفر سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م، وسرقوا سوق الجمالون بوسط القاهرة، فبلغ ذلك ابن الكوراني «فبادر وركب ولحق بهم، فمسك منهم ثلاثة أنفار بضواحي القاهرة، فوجد معهم ما أخذوه، فأثخنهم عقوبة حتى دلوه على بقيتهم»<sup>(٤)</sup> وحين ظفر ببقيتهم هذا الوالى سمرهم على الجمال وطاف بهم شوارع القاهرة، ثم قتلهم<sup>(٥)</sup>.

(١) أبو المحاسن: المنهل الصافي جـ ٤ ص ٥١٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٦٠.

(٣) على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك ص ٢٣٠.

(٤) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ١٢٩.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ١ ص ٣١٧.

كذلك كان يجلس والى القاهرة بعد صلاة العشاء كل ليلة بمركز إطفاء الحريق تجاه سوق الجمelon الكبير بالغورية، وينصب أمامه مشعل يشعل بالنار طرل الليل، وحوله بعض أعوانه، وكثير من النجارين والسقائين خشية حدوث الحريق بالليل فيبادرون إلى إطفائه<sup>(١)</sup>.

ونظرا لأهمية وظيفة الوالى وخطورة مسؤولياته، فإنه كان لا يستطيع «النوم خارج المدينة إلا بمرسوم خوفا من حريق أو منسر أو كسر حاصل أو فتح وغير ذلك»<sup>(٢)</sup>.

وقد ساعد والى القاهرة ولاة آخرون أهمهم والى الفسطاط، ويشرف على مصر (الفسطاط والعسكر والقطائع) وهو برتبة أمير عشيرة<sup>(٣)</sup>، ووالى القرافة، ووظيفته الإشراف على الأمن في جهات القرافة، ويعين هذا الوالى أيضا من بين أمراء العشرات<sup>(٤)</sup>.

وكانت ولاية القرافة مضافة لوالى مصر ثم صارت ولاية مستقلة فى أوائل حكم السلطان برقوق سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م<sup>(٥)</sup>.

وفى أواخر حكم السلطان برقوق أضيفت ولاية القرافة إلى والى مصر مرة أخرى سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٩م<sup>(٦)</sup>، وصارت ولاية واحدة وأشرف عليها أمير برتبة طبلخاناه<sup>(٧)</sup>.

وأخيرا والى القلعة أو نائبها، ويختار من أمراء الطبلخانات، وكان يعهد إليه الإشراف على فتح أبواب القلعة فى الصباح وإغلاقها فى المساء<sup>(٨)</sup>، كما كان

(١) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٠٣.

(٢) الخالدى: المقصد الرفيع ورقة ١٢٨.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٣.

(٤) القلقشندى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٥) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ١ ص ١٠٦.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثانى ص ٥١٨.

(٧) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٣.

(٨) القلقشندى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

يشرف على أعمال حراسة الأبراج بالقلعة ومراقبة المعتقلين بها، وملاحظة أسوارها ومنافذها، وإليه ترفع المحاكمات في القلعة من عامته<sup>(١)</sup>.

ويلاحظ أن نائب القلعة صار في عهد السلطان برقوق من أمراء المثين، وهي أعلى مراتب الأمراء في عصر المماليك<sup>(٢)</sup>، وثمة ملاحظة أخيرة على نيابة القلعة، وهي أن نائبها غدا في معظم الأحيان مستقلا عن نائب السلطنة، كما صار من واجبه مراقبة نائب السلطنة بل ومقاومته إذا حدثته نفسه بالخروج على السلطان<sup>(٣)</sup>، وفوق ذلك فهو الذي يدير أعمال القلعة عند خروج السلطان للحرب أو الصيد وغير ذلك، ولعل أقرب مثال لذلك ما أشار إليه ابن إياس من أن السلطان برقوق حين خرج إلى الشام لمحاربة الثوار بها سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م، جعل كمشيغا الحموي نائب الغيبة بمصر إلى أن يعود، كما أمر نائب القلعة «بأن يقيم بالإيوان الذي بالقلعة وترك عنده من المماليك خمسمائة مملوك»<sup>(٤)</sup> لحراسة القلعة والدفاع عنها إذا ما دعت الظروف.

#### ثانياً: الإدارة الإقليمية:

تمثلت هذه الإدارة في عدد من نواب السلطنة مقرهم بالمدن الكبرى بالوجهين البحري والقبلي، ويعاونهم مجموعة من الولاة الموزعين على بقية الأقاليم، وهذه النيابات هي:

#### ١- نيابة الإسكندرية:

استحدثت هذه النيابة في أواخر عهد دولة المماليك البحرية على عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م وعين لها نائب من كبار أمراء المثين، وكانت قبل ذلك ولاية يعين لها وال من أمراء الطلبخاناه<sup>(٥)</sup>.

(١) الخالدي: المقصد الرفيع ورقة ٧٠.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ٢٧، ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ١٩٤.

(٣) Demombynes: Op. Cit. CVIII.

Van Berchem: Op. Cit. pp. 210 - 211.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثاني ص ٤٤٦.

(٥) الخالدي: المقصد الرفيع ورقة ١٢٧.

على أن تحويل الإسكندرية من ولاية إلى نيابة، إنما يرجع إلى ما حدث في هذه السنة من قيام ملك قبرس بحملته الكبيرة على الإسكندرية<sup>(١)</sup>، وفوق ذلك فقد كانت مدينة الإسكندرية من أهم ثغور مصر التجارية على البحر الأبيض.

## ٢- نيابة الوجه البحرى:

وهي وظيفة استحدثها السلطان برقوق، ومقر نيابتها دمنهور مدينة البحيرة<sup>(٢)</sup>، ويرجع السبب في إنشاء هذه الوظيفة إلى كثرة ثورات العربان في البحيرة<sup>(٣)</sup>.

وقد جعل برقوق لنائبها أهمية كبيرة، وأقرب مثل لذلك أن الأمير قرط بن عمر التركمانى حين عين نائباً للبحيرة والوجه البحرى سنة ٧٨٢هـ / ١٣٨٠م، صحبه إلى مقر عمله عدد حربية وأسلحة كثيرة ومال جزيل، فسار في عسكر كثير<sup>(٤)</sup>.

ولا ريب في أن ذلك يفسر بما ذكره القلقشندى من أن نيابة دمنهور «ليست على قاعدة النيابات، بل هي في الحقيقة ولاية حرب كبيرة»<sup>(٥)</sup>.

وعلى الرغم من كل هذه الإجراءات فقد ظل العربان طوال عصر المماليك مصدرًا من مصادر القلاقل وعدم الاستقرار، وفوق ذلك اعتاد العربان أن ينتهزوا فرصة غياب السلطان خارج الدولة فيعملون على الإخلال بالأمن والإضرار بالنظام والاعتداء على الأهالى بالقتل والنهب، الأمر الذى جعل نائب السلطنة في

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٤، ابن إياس: بدائع الزهور جـ ١ القسم الثانى ص ٢٤.

Demombynes: Op. Cit. P. LXIV.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٥، الخالدى: المقصد الرفيع ورقة ١٢٧.

(٣) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الأول ص ٣٠٤، ٣١٩، ٣٤٤، ٣٩١.

(٤) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الأول ص ٤٠١ - ٤٠٢.

(٥) القلقشندى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

القاهرة يرسل بقوات إضافية في مثل هذه الظروف تقوية للجهاز الإدارى بالوجه البحرى<sup>(١)</sup>.

أما الإدارة ببقية المدن بالوجه البحرى فأشرف عليها مجموعة من الولاة بعضهم برتبة أمير طبلخاناه (أمير أربعين) والبعض الآخر برتبة أمير عشرة. فمن الأعمال التى أشرف عليها ولاة في وظيفة أمير طبلخاناه: الشرقية والمنوفية والغربية<sup>(٢)</sup>، وكانت بلبيس مقرا لوالى الشرقية، كما جعلت منوف مقرا لوالى المنوفية، أما والى الغربية فكان مقره المحلة الكبرى<sup>(٣)</sup>.

ومن الأعمال التى حكم كلا منها وال فى رتبة أمير عشرة: القليوبية والدقهلية ودمياط وقطيا، وكانت قليوب مقرا لوالى القليوبية، وأشوم مقرا لوالى الدقهلية، كما جعلت دمياط مقرا لوالى دمياط، أما والى قطيا فكان مقره بلده قطيا نفسها<sup>(٤)</sup>، والتى كانت تقع على الحدود بالقرب من شبه جزيرة سيناء.

وترتب على تحويل عمل البحيرة إلى نيابة أن صار للوجه البحرى كاشف من أمراء الطبلخاناه يحكم سائر بلاد الوجه البحرى فيما عدا البحيرة، ومقره ميت غمر، وإن كان فى الحقيقة يرجع فى كل أموره إلى نائب الوجه البحرى<sup>(٥)</sup>.

وثمة ملاحظة أخيرة على الولاية بهذه الأقاليم، وهى أن هذه المناصب كان لا يشغلها غير العسكريين، وذلك فيما عدا ولاية قطيا التى شغلت على عهد برقوق بغير العسكريين، ومن شغل هذه الوظيفة من المدنيين عبد الرزاق بن أبى الفرج الملكى الذى عين واليا لقطيا مضافا إلى نظرها فى عصر السلطان برقوق فى ١٥ صفر سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٦م<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ١ ص ٣٣٣.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٦ - ٢٧.

(٣) القلقشندى: نفس المصدر جـ ٣ ص ٤٠٠، ٤٠٥، ٤٠٦.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٧ - ٢٨.

(٥) القلقشندى: نفس المصدر والجزء ص ٢٥، ٦٥.

(٦) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ١ ص ٤٢٥.

وربما كان من أهم أسباب ترشيح المدنيين لولاية قَطِيَا يرجع إلى أهميتها من حيث أنه لا يمكن لأحد الجواز بين مصر والشام إلا منها، فضلا عن أنها مكان أخذ المكس من القادمين إلى مصر، ومن ثم اختار لها السلطان برقوق ولاية من الأقباط الذين مارسوا الخدمة في الدواوين المالية بحيث أصبحت لهم دُرْبَةٌ كافية في إدارة القضايا المالية، وعلى هذا استقبلت بعض هذه الجهات ولاية جددا، كما استقبلت تطورا في نظم الإدارة.

وفضلا عن هذا فإن بعض أشغال العمارة التي تخدم الجهاز الإدارى بهذه المناطق، كانت تقام وقتذاك في دمنهور والإسكندرية<sup>(١)</sup>.

### ٣- نيابة الوجه القبلى:

وهي أيضًا مما استحدثه السلطان برقوق، ويكاد يكون نائبها في رتبة نائب الوجه البحرى، بل لعله أعظم شأنًا منه وقد جعل مقر النائب بها مدينة أسيوط، على أن يكون حكمه على جميع بلاد الوجه القبلى بأسرها<sup>(٢)</sup>، ولم تكن لهذه الوظيفة قبل عهد برقوق هذه الأهمية بسبب هدوء الصعيد، ولذا تولاها قبل ذلك موظف كبير عرف باسم «الكاشف» وأطلق عليه «والى الولاية»<sup>(٣)</sup>.

ولذلك يرجع السبب في إنشاء هذه الوظيفة إلى كثرة ثورات العريان بالصعيد، بالإضافة إلى الأخطار التي هددت البلاد من الجنوب، وبالرغم من اهتمام برقوق بأمر هذه البلاد فقد ظلت مصدرًا من مصادر الإخلال بالأمن في كثير من الأحيان.

وكثيرا ما دخل رجال الإدارة مع عريان هذه المناطق في اشتباكات عنيفة، قتل فيها كثير من العريان كما قتل فيها عدد غير قليل من الولاية والكشاف<sup>(٤)</sup>.

(١) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الأول ص ٤١٠، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١٣.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٤، الخالدى: المقصد الرفيع ورقة ١٢٧.

(٣) Demombynes: Op. Cit. P LXIV.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٢ ص ١٣٨، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ١ ص ٤٢٩.

وكانت مدينة أسوان قبل عهد برقوق مضافة إلى والى قوص، وحين ازدادت الأخطار الخارجية التي تتهددها من جانب النوبة والحبشة، استحدث برقوق وظيفة والى أسوان<sup>(١)</sup>.

وبالرغم من ذلك فكثيرا ما هاجم الكنوز<sup>(٢)</sup> أسوان، وقد أفاض المؤرخون في وصف عبثهم بالبلاد وتعديهم على الأهالي، فمن ذلك ما ذكره ابن الصيرفي في حوادث سنة ٧٨٧هـ - ١٣٨٥م من «أن الكنوز هجموا أسوان وقتلوا معظم من بها ونهبوا المسلمين، فهرب الوالى منهم»<sup>(٣)</sup>.

ولم تقف الحكومة المركزية مكتوفة الأيدي أمام عدوان العربان، وإنما خرجت الجيوش إلى الصعيد للضرب على أيديهم، كما بعثت السلطنة بكبار موظفيها الإداريين للقضاء على هذه الاضطرابات، وليس أدل على ذلك مما أشار إليه أبو المحاسن في حوادث سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٤م، من أن قُطِلُوْبَعًا بن عبد الله كاشف الوجه القبلى والمعروف بأبى ذرقة «وقع له أمور مع العربان وقتل منهم جماعة كبيرة حتى مهد البلاد القبلىة»<sup>(٤)</sup>.

وما لبث أولاد الكَنَز أن عاودوا الهجوم على أسوان مرات عديدة «فكانت لهم من ولاة أسوان عدة حروب إلى أن كانت المحن منذ سنة ٨٠٦هـ، وحرب إقليم الصعيد، فارتفعت يد السلطنة عن ثغر أسوان، ولم يبق للسلطان في مدينة أسوان وال<sup>(٥)</sup>.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ج٤ ص ٢٦، ٦٦.

(٢) هم عرب يسكنون بعض أقاليم السودان وصعيد مصر، المقرئى: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ص ٤٤.

(٣) ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج١ ص ١٩١.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج١٢ ص ١٣٨.

(٥) المقرئى: الموعظ والاعتبار ج١ ص ١٩٨ - ١٩٩.

ومهما يكن من أمر فقد أشرف على بقية مدن الوجه القبلى مجموعة من الولاة بعضهم كان يعين من بين أمراء الطبلخاناه، والبعض الآخر كان يعين من بين أمراء العشرات.

فمن الأعمال التى أشرف عليها ولاة فى رتبة أمير أربعين، البهنسى والأشمونين (المنيا) وقوص وأسوان، وكانت البهنسى مقرا لوالى البهنساوية، والأشمونين مقرا لوالى الأشمونين، وقوص مقرا لوالى القوصية، كما جعلت أسوان مقرا لوالى أسوان<sup>(١)</sup>.

ومن الأعمال التى حكم كلا منها وال فى وظيفة أمير عشرة: الجيزية والإطفيحية والمنفلوطية، وكانت الجيزية مقرا لوالى الجيزية، وإطفيح مقرا لوالى الإطفيحية، ومنفلوط مقرا لوالى المنفلوطية<sup>(٢)</sup>.

ثالثاً: دواوين الحكومة:

وكان لا بد من أن يعتمد هذا الجهاز الإدارى الضخم على عدد من الدواوين الحكومية حتى ينتظم سير العمل فى شتى المجالات وتلك الدواوين هى:

١- ديوان الإنشاء: ومهمته تلقى المكاتبات الرسمية الخاصة بالدولة، وهى ما يرد إلى السلطان من ملوك ورؤساء الدول المختلفة التى تربطها بمصر علاقات سياسية، كما أنه يقوم بإعداد المكاتبات والرسائل الرسمية وتبليغها للنواب والولاة فى الداخل<sup>(٣)</sup>.

(١) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٩٣ - ٣٩٨، جـ ٤ ص ٢٦.

(٢) القلقشندي: نفس المصدر جـ ٣ ص ٣٩٢ - ٣٩٥، جـ ٤ ص ٢٧، ابن الجيعان: التحفة السنية ص ٤.

(٣) القلقشندي: نفس المصدر جـ ١ ص ١٠٢.

وقد وجه السلطان برقوق عنايته إلى ديوان الإنشاء لكثرة المحالفات والمعاهدات التي عقدها مع الملوك والرؤساء المعاصرين له، وما ترتب على ذلك من تبادل المكاتبات بينه وبينهم<sup>(١)</sup>.

وتلقب صاحب ديوان الإنشاء بكاتب السر<sup>(٢)</sup>، وهى التسمية التي أطلقت لأول مرة سنة ٦٧٨هـ في عهد قلاوون على القاضي فتح الدين محمد بن عبد الظاهر، وصار بذلك أول كاتب سر في الدولة المملوكية وغيرها، وإنما كانت هذه الوظيفة من اختصاصات الوزارة، فكان الوزير هو المتصرف في هذا الديوان وتحت يده طائفة من الكتاب تعاونه<sup>(٣)</sup>.

على أن وظيفة كاتب السر في دولة السلطان برقوق غدت من أهم الوظائف الديوانية وأجلها قدرا، وليس أدل على صحة هذا القول من ذكره القلقشندي وهو من المعاصرين لهذه الدولة ومن التحقوا بهذا الديوان، حيث يقول: «ومرتبته في زماننا أرفع مرتبة ومحل أعظم محل، إليه تلقى أسرار المملكة وخفاياها، وبرأيه يستضاء في مشكلاتها، وعلى تدبيره يعول في مهماتها، وإليه ترد المكاتبات وعنه تصدر، ومن ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة، ويقوم توقيعه على القصص في نفوذ الأوامر مقام توقيع السلطان»<sup>(٤)</sup>.

وبذلك غدا صاحب هذه الوظيفة بمثابة وزير<sup>(٥)</sup> وكان يتولى هذا الديوان في ذلك العهد جماعة من أفاضل الكتاب المصريين ما بين مسلم وذمي، فمثلا كتب إبراهيم بن غراب — وهو من النصارى الذين أسلموا — للسلطان فرج بن برقوق<sup>(٦)</sup>.

(١) تناولت هذه المكاتبات بشيء من التفصيل عند الحديث عن العلاقات الخارجية.

(٢) القلقشندي صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٤.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢٩٣، ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ القسم الأول ص ٣٤٨ - ٣٤٩.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى ج ١ ص ١٠٢.

Wiet Op. Cit P. 399.

(٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ١٣ ص ١٥٦.

ولمة جماعة من غير أهل مصر تولوا رئاسة هذا الديوان، فقد عهد السلطان برقوق بالديوان إلى القاضي بدر الدين محمود بن عبد الله الكُستَاني<sup>(١)</sup>، وربما كان من أهم أسباب ترشيحه لوظيفة كاتب السر أنه كان يجيد الفارسية والتركية بجانب العربية<sup>(٢)</sup>، في وقت غدت فيه إدارة هذا الديوان في حاجة ماسة إلى من يجيد هذه اللغات، بعدما تزايدت المكاتبات الواردة على السلطان برقوق من إيلخانات المغول في فارس<sup>(٣)</sup>، وخانات مغول القفجاق<sup>(٤)</sup>، بسبب تهديدات تيمور لنك لبلدان هذه المناطق.

ومما يقوى هذا الرأي ما حكاه أبو المحاسن من أن السلطان برقوق حين خرج إلى الشام سنة ٧٩٦ لأجل محاربة تيمور لنك، ورد عليه كتاب من تيمور لنك بعبارة تركية، فطلب السلطان من يقرأه ويكتب جوابه، وذلك لعجز القاضي بدر الدين بن فضل الله عن معرفة اللغة التركية، فأحضروا له بدر الدين محمود الكُستَاني فقرأ الكتاب ثم كتب جوابه، فأعجب السلطان برقوق بذلك، وأثنى عليه، ثم طلب الكُستَاني أن يتوجه مع السلطان إلى الشام لخدمته فرسم له بذلك<sup>(٥)</sup>.

ولما كان من العسير على كاتب السر أن يقوم بأعباء هذا الديوان وحده، كان ثمة أعوان لمساعدته، أولهم «نائب كاتب السر» الذي يقوم بالرد على المكاتبات الواردة إلى الديوان في حالة تغيب كاتب السر أو تخلفه لحضور مجالس السلطان<sup>(٦)</sup>، ومن شغل هذه الوظيفة في عهد السلطان برقوق، أبو البقاء حمزة بن

- 
- (١) أشار أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ١٣ ص ١١ إلى أنه سمي بالكُستَاني لكثرة قراءته كتاب الشاعر العجمي السعدي المسمى كلستان.
- (٢) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ٢ ص ٢١.
- (٣) أبو المحاسن: المنهل الصافي جـ ٥ ص ٣٥٤.
- (٤) ابن حجر: أنباء الغمر جـ ١ ص ٣٠١، ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ ١ ص ٣٨٧.
- (٥) أبو المحاسن: المنهل الصافي جـ ٥ ص ٣٥٤.
- (٦) الخالدي: المقصد الرفيع ورقة ١٣٤.

على بن يحيى بن فضل الله العمرى فكان نائب أخيه القاضى بدر الدين محمد بن فضل الله كاتب السر<sup>(١)</sup>.

ومن أشهر من تولوا هذه الوظيفة في عهد السلطان فرج بن برقوق، القاضى زين الدين طاهر بن حبيب «وكان فاضلا في صناعة الإنشاء، له نظم إلى الغاية»<sup>(٢)</sup>.

أما بقية أعمال الديوان فقد توزعت على «كتاب الدست»<sup>(٣)</sup> فكان منهم من يقوم بصياغة المكاتبات الموجهة إلى ملوك المسلمين وأمرائهم، ومنهم من يقوم بصياغة الرسائل الموجهة إلى ملوك الفرنجة، أو ترجمة الرسائل الموجهة من هؤلاء الملوك إلى السلطان<sup>(٤)</sup>، ولهذا السبب أشار القلقشندي إلى أهمية إمام الكاتب بديوان الإنشاء بكثير من اللغات الأجنبية حتى يمكن فهم المكاتبات الواردة من الخارج والإجابة عنها من غير اطلاع ترجمان عليها، وذلك حفاظا على أسرار الدولة وسلامتها<sup>(٥)</sup>.

ولم يغفل السلطان برقوق وابنه العناية بهذه الناحية، ولعل أقرب مثل يوضح ذلك ما ساقه القلقشندي من أن كتاب دوج البندقية نقولا، الذى ورد إلى السلطان فرج بن برقوق سنة ٨١٤هـ باللسان الفرنجى، قام بنقله إلى العربية اثنان من الترجمة بديوان الإنشاء وقتذاك، هما شمس الدين سنقر وسيف الدين سؤدون<sup>(٦)</sup>، وفوق ذلك فقد تزايد عدد كتاب الدست في سلطنة الظاهر برقوق وابنه الناصر فرج حتى جاوزوا العشرين بعد أن كان عددهم قبيل سلطنة برقوق عشرة أو نحوها<sup>(٧)</sup>.

(١) ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج١ ص ٣٥٣.

(٢) ابن الصيرفي: المصدر السابق ج٢ ص ٢٢٢.

(٣) سموا بذلك إضافة إلى دست السلطان، وهو مرتبة جلوسه، لجلوسهم للكتابة بين يديه،

القلقشندي: صبح الأعشى ج١ ص ١٣٧.

(٤) سعيد عاشور: العصر المالكي ص ٣٦٢.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى ج١ ص ١٦٥.

(٦) القلقشندي: المصدر السابق ج٨ ص ١٢٣.

(٧) القلقشندي: نفس المصدر ج١ ص ١٣٧.

وربما كان من أهم الأسباب التي أدت إلى تزايد عدد كُتّاب الدَّسْت في عصر السلطان برقوق هي كثرة المكاتبات الواردة على الأبواب السلطانية من أكابر رجال الدولة وأهل المملكة، وهي كثرة تفوق الحصر، ثم هذه المكاتبات الواردة من أهل الشرق من القانات العظام والملوك والحكام، والكتب الواردة من المغرب من ملوك بني حفص وبني مرين وبني زيان وغير ذلك كثير، ويكفي أن المكاتبات الصادرة من ملوك أهل الشرق وحدهم من القانات العظام وغيرهم إلى السلطان برقوق، بلغت في أخريات سنة ٧٩٥هـ، ست مكاتبات حملتها البعثات السياسية الموفدة من قبل ملوكها إلى الأبواب السلطانية بمصر<sup>(١)</sup>.

### البريد:

وتمتعت إدارة البريد بقسط كبير من الأهمية في عصر السلطان برقوق، وكانت تتبع ديوان الإنشاء، وأسند إلى هذه الإدارة في تلك الفترة أمور عديدة، كتنقل المكاتبات الإدارية والديبلوماسية والأوامر الحربية، وإرسال الأمراء إلى المنفى أو إلى السجن، وكذلك سائر الأمور التي تجرى بمصر والنيابات الشامية من الفتن والثورات وأخبار السرقة وجرائم القتل ونحو ذلك.

ومن المعروف أن البريد البري كان قد نظم تنظيمًا دقيقًا في سنة ٦٦٩هـ على عهد السلطان بيبرس البندقداري، فزودت مراكز البريد بكل ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف وغير ذلك، وذلك كله ضمانًا لسرعة مجيء أخبار البلاد الشامية إلى مقر السلطان بقلعة الجبل<sup>(٢)</sup>.

واستمر هذا الأمر باقيا إلى عهد السلطان برقوق الذي قام بدوره بتوجيه عنايته إلى هذه المراكز وأنفق في سبيل ترتيبها أموالا ضخمة<sup>(٣)</sup>، فصارت طريق البريد في عهده كما وصفها المقرئزي: «عجامة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج

(١) ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج ١ ص ٣٦٠، ٣٦٢، ٣٦٥.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ج ١ القسم الأول ص ٣٣١ - ٣٣٢.

(٣) ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج ١ ص ٤٠٥ - ٤٠٦.

إليه المسافرين من زاد وعلف وغيره ولكثرة ما كان فيه من الأمن أدركنا المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها — راكبة أو ماشية — لا تحمل زاداً ولا ماء»<sup>(١)</sup>.

ولكن على ما يبدو أهمل هذا المرفق في الشام في أوائل عهد السلطان فرج بن برقوق بسبب غزو تيمور لنك للبلاد الشامية عام ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م، فقضى على نظام البريد واشتغلت حكومة فرج بن برقوق بما نزل بالبلاد من المحن، وما دهيت به مصر من كثرة الفتن «عن إقامة البريد فاخترت بانقطاعه طريق الشام خللاً فاحشاً»<sup>(٢)</sup>.

ولم يقتصر السلطان برقوق على البريد العادي في ربط مختلف أطراف البلاد بعضها ببعض، بل استخدم الحمام الزاجل، فكانت ترد إلى قلعة الجبل في عهد السلطان برقوق الرسائل والتقارير من الحكام والنواب بمصر والبلاد الشامية عن طريق شبكة من البريد الجوي<sup>(٣)</sup>، غير أن هذا النظام أصيب بالإهمال كذلك على عهد السلطان فرج بن برقوق، و«بطل الحمام من سائر المملكة إلا ما ينقل من قطيا إلى بلبس ومن بلبس إلى قلعة الجبل»<sup>(٤)</sup>.

ويعزى السبب في هذا أيضاً إلى غزو تيمور للشام سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م، ومن ثم استخدم راكبو الإبل السريعة والسعاة من جديد في نقل البريد الرسمي<sup>(٥)</sup>.

## ٢- ديوان الأحباس:

أما ديوان الأحباس (الأوقاف) فهو ديوان فاطمي الأصل، وقد أبقاه الأيوبيون من بعدهم، وجعلوا النظر فيه من اختصاص القاضي، فلما قامت الدولة المملوكية

(١) المقرئ: المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٢٢٧.

(٢) المقرئ: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٣) ابن الصريف: نزهة النفوس جـ ١ ص ٦٣، ٣٠٩.

(٤) المقرئ: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٣٢.

(٥) دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص ١٨٣.

الأولى قسمت ديوان الأحباس إلى ثلاث إدارات رئيسية، ثم لما كانت دولة الظاهر بقوق وأسرتهم أبقوا هذا الديوان على هيئته فيما أبقوه من دواوين<sup>(١)</sup>.

وأولى هذه الإدارات كانت تعرف بالأحباس، وهي الخاصة بالمساجد والزوايا، وكان الإشراف الإداري في هذا القسم من اختصاص الدوادار الكبير، وهو من كبار الموظفين بالقصر المالكي<sup>(٢)</sup>.

والثانية تعرف بالأوقاف الحكيمة، ويقصد بها الأوقاف المحبوسة على الحرمين وعلى الصدقات وافتداء أسرى المسلمين، ويشرف على إدارتها ناظر الأوقاف، وهو غالباً قاضى قضاة الشافعية، الذى كان ينيب عنه واحداً للإشراف على شئون الأوقاف بمصر والقاهرة، وقد يجعل واحداً للإشراف على شئون الأوقاف بالقاهرة، وآخر للإشراف على شئون الأوقاف بمصر، ويدير كلا من أوقاف القاهرة ومصر ديوان يعمل فيه عدد من الكتاب والجبابة<sup>(٣)</sup>.

أما الإدارة الثالثة فهى الأوقاف الأهلية، ولها ناظر خاص لإدارة شئونها قد يكون من أولاد الواقف، وقد يوليه السلطان أو القاضى<sup>(٤)</sup>.

ومن أشهر الدوادارية الذى تولوا منصب ناظر الأحباس في عهد السلطان فرج ابن بقوق، الأمير يَشْبِك العشبانى، وقد تولى هذا المنصب مرتين، الأولى في شوال سنة ٨٠٢ هـ<sup>(٥)</sup>، والثانية في ذى الحجة سنة ٨٠٤ هـ<sup>(٦)</sup>.

ومن أشهر قضاة هذا الديوان في عهد السلطان بقوق القاضى الفاضل تاج الدين محمد بن محمد المليحى الذى عرف بالخير والصلاح والعفة الزائدة<sup>(٧)</sup>.

(١) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٩٥.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣٨، المقرئى: المواعظ والاعتبار: جـ ٢ ص ٢٩٥.

(٣) المقرئى: المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٩٥ - ٢٩٦، الخالدي: المقصد الرفيع ورقة ١٣٢.

(٤) المقرئى: نفس المصدر والجزء ص ٢٩٦.

(٥) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ٢ ص ٥٩.

(٦) المقرئى: السلوك جـ ٣ القسم الثالث ص ١٠٨٨.

(٧) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ ١ ص ٣٩٥.

ومن تولى هذا المنصب من القضاة في عهد السلطان فرج بن برقوق، قاضي القضاة كمال الدين أبو حفص عمر بن إبراهيم، المعروف بابن العدم، وكان عالماً فاضلاً وقوراً<sup>(١)</sup>.

### ٣- ديوان النظر:

أما ديوان النظر فكان يختص بمراقبة حسابات الدولة، وإليه كانت ترجع سائر الدواوين المالية في كل ما يتعلق بالمتحصل والمنصرف من أموال الدولة، وفوق ذلك كان هذا الديوان يتولى صرف مرتبات الموظفين سواء منها ما كان يصرف نقداً، أو يصرف عيناً من غلات ولحوم وتوابل وخبز وسكر وزيت ونحو ذلك<sup>(٢)</sup>. وأشرف على هذا الديوان موظف كبير عرف باسم ناظر المال أو ناظر الدولة، وقد وصفه المقرئزي بأنه حين كان يصعد إلى بيت المال بالقلعة «فيكون له هناك أمر وهى وحال جليلة، لكثرة الجمول الواردة وخروج الأموال المصروفة في الرواتب لأهل الدولة، وكانت أمراً عظيماً»<sup>(٣)</sup>.

كذلك أشار أبو المحاسن إلى أن هذا المنصب كان في عهد برقوق وابنه من أجل المناصب في الدولة<sup>(٤)</sup>، وكثيراً ما كان يرقى الوزراء من أرباب القلم في هذه الفترة من بين من يشغلون وظيفة نظر الدولة<sup>(٥)</sup>. ومن أشهر من تولوا وظيفة نظر الدولة في عهد السلطان برقوق الوزير السابق سعد الدين نصر الله بن البقرى، وكان برقوق قد قلده هذه الوظيفة في سنة ٧٩٦هـ بعد أن أنهى خدمته كوزير<sup>(٦)</sup>.

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج٣- ص ١٧١.

(٢) المقرئزي: المواعظ والاعتبار ج٢- ص ٢٢٤.

(٣) المقرئزي: المواعظ والاعتبار ج٢- ص ٢٢٤.

(٤) أبو المحاسن: المنهل الصافي ج١- ص ٢٨١.

(٥) ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج٢- ص ١٠٠.

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج١٢- ص ١٥٢.

ويعاون ناظر الدولة بمجموعة من الموظفين أهمهم مستوفى الصحة وهو بمثابة وكيل ديوان النظر، وشهود بيت المال وصيارفته<sup>(١)</sup>.

#### ٤- ديوان الخاص:

وهو الديوان الذى أحدثه الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٧هـ / ١٣٢٧م وكانت مهمة هذا الديوان الإشراف على شئون السلطان المالية، وتولى الإشراف على هذا الديوان موظف كبير أطلق عليه اسم «ناظر الخاص»<sup>(٢)</sup>. وقد ظل الديوان يباشر عمله على هذه الصورة طوال أيام السلطان برقوق وابنه السلطان فرج.

ومن رأس هذا الديوان في عهد السلطان برقوق، موفق الدين أبو الفرج عبد الله، وهو من النصارى الذين أسلموا<sup>(٣)</sup>.

وربما جمع بين نظر الخاص وعدة وظائف أخرى لشخص واحد كما حدث للقاضى شرف الدين بن الدمامينى ناظر الخاص في عهد السلطان فرج بن برقوق، حيث أسند إليه السلطان فرج بجانب ذلك نظارة الجيش ووكالة بيت المال<sup>(٤)</sup>.

(١) سعيد عاشور: العصر المالىكى ص ٣٦٥.

(٢) سعيد عاشور: مصر في عصر دولة المالك البحرية ص ١٥١.

(٣) ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج ١ ص ٧٨.

(٤) ابن الصيرفي: نزهة النفوس ج ٢ ص ٤٣.